عام على غزو العراق 2/3 نحن والمقاومة ومستقبل الأمة

23-3-2004

ليس من المبالغة القول أن الشروط السياسية والاقتصادية والاجتماعية لنمو المقاومة كانت متوافرة منذ المرحلة الأولى للاحتلال فلم يبق سوى الشروط العسكرية التي كانت جاهزة هي أيضا، فبرزت المقاومة منذ بداية الصيف أي قبل توقع نشوبها. لكن الأجهزة الأمريكية تحاول إرجاعها إلى أنصار النظام السابق وإلى الحركات الإسلامية الإرهابية القادمة من الخارج والمرتبطة بتنظيم القاعدة"..

بقلم محمد سليمان

مواد ذات علاقة

عام على غزو العراق 1/3 نحن والمقاومة ومستقبل الأمة

الأمريكيون يساهمون في بناء المقاومة

بالرجوع لكثير من الدراسات والقراءات الأمريكية، فإن إدارة الرئيس بوش لم تكن تتوقع – قبل وقوع الحرب- هذا الحجم الكبير والمتزايد من المقاومة، كما أنها لم تكن على استعداد كاف لمرحلة ما بعد الحرب، ففي تقرير لمؤسسة كارنيغي للسلام بعنوان "من النصر إلى النجاح" أكد الخبراء فيه على قصور وضعف التصورات الأمريكية في التعامل مع مرحلة "ما بعد الحرب"؛ وفي الوقت الذي وضعت فيه خطط الحرب بالتفصيل وحددت بالمعلومات الدقيقة، فإنّ خطط ما بعد الحرب ومشروعات إعادة البناء اتسمت بالعمومية والمثالية المفرطة، إلى درجة أن الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية كانت تتوقع أن تتم عملية إعادة البناء بما في ذلك المؤسسات السياسية والدستور في وقت قصير جدا يمر بمراحل تستمر من عدة شهور إلى عامين – في الأغلب -.

إضافة إلى ما سبق، لم يكن الخبراء الأمريكيون يتوقعون وجود مقاومة فاعلة حقيقية على الأرض ويرصد الباحث Carlos Yordan في بحث له بمجلة "ميريا" الإسرائيلية بعنوان Failing to Meet Expectations in Iraq آراء اتجاه كبير من الخبراء والمحللين الأمريكان، والذين يرون أن الإدارة الأمريكية لم تكن أبدا تحسب حساب السيناريو الأسوأ لما بعد الحرب Worst – Case Scenarios، واعتمدت على تصورات متفائلة وإيجابية للعلاقة بين القوات الأمريكية والمجتمع والقوى العراقية لما بعد صدّام.

ففي مقابلة إعلامية مع نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني - قبل بدء الحرب - سئل فيما إذا كان الأمريكيون لن يستقبلوا من قبل الشعب العراقي كمحررين وإنما كمحتلين، وفي حالة بدأوا يواجهون مقاومة فاعلة على الأرض : فهل الشعب الأمريكي سيكون مهيئا لصراع دموي طويل مكلف ؟! فأجاب تشيني بالقول: إن هذا التصور غير مطروح وفقا للقراءة الأمريكية للوضع العراقي ولحوارها مع القوى السياسية العراقية، وإنما العراقيون سيرحبون بشكل قوي بالتخلص من صدام وسوف تتعاون الفئات والقوى المختلفة في المجتمع العراقي مع الأمريكان في المرحلة التالية.

ولم تقف الأخطاء الأمريكية عند حدود التصورات السابقة وإنما امتاز السلوك الأمريكي بالاستناد إلى افتراضات تستند إلى رؤى وأفكار استشراقية وصهيونية يغلب عليها طابع الاعتماد على أسلوب العنف والقوة والابتزاز والرشوة للتعامل مع فئات المجتمع العراقي المختلفة مما أثار - بشكل كبير – مشاعر الغضب ضد القوات الأمريكية وفي الدعوة إلى المقاومة، بل والمساهمة في تجنيد الشباب المستثار ضد القوات الأمريكية.

ففي مقال للباحث الأمريكي Stephen Zunes في مجلة Foreign Policy in Focus بعنوان Iraq One Year Later يقدم فيه قراءة تطبيقية في طبيعة العقلية الأمريكية واملبنية على تصورات معينة في التعامل مع المجتمع العراقي ؛ فأحد كبار الضباط الأمريكان في العراق Todd Brown- على سبيل المثال - يصرح لصحيفة نيويورك تايمز قائلاً : " يجب أن تفهم العقل العربي : الشيء الوحيد الذي يفهمه هو القوّة " ، ولم يكتف رد الفعل الأمريكي بضرب واعتقال أفراد المقاومة وإنما شمل أُسر المقاومين وجيرانهم وأقربائهم .

ويؤكد Zunes أن القوات الأمريكية تستعين بخبراء إسرائيليين في مواجهة العمليات المسلّحة ، كما أنّ عددا من الضباط الأمريكيين يذهبون إلى إسرائيل لمعاينة للإفادة من طرق وأساليب الجيش والأجهزة الأمنية الإسرائيلية في التعامل مع المقاومة ومع الخلايا المسلّحة .

ووفقا لذات الفرضيات - في التعامل مع العراقيين - يقول الكولونيل الأمريكي Sasaman :"بكميات ثقيلة من الخوف والرعب وبكثير من المال للمشروعات، أعتقد أننا نستطيع إقناع هؤلاء الناس بأننا هنا لمصلحتهم"، وينسج الخبير الأمريكي James Philipsعلى نفس المنوال السابق في مقال له بعد اعتقال صدام يؤكد فيه على ضرورة الاعتماد على إستراتيجية أمريكية مبنية على قاعدة أن الرشاوي المالية وسيلة فعّالة في تحقيق الأهداف الأمريكية، ومنها القضاء على المقاومة وهو ما يعبّر عنه بعبارة Follow The Money .

الأفكار السابقة أكدت عليها كذلك رؤية عدة مراكز دراسات أمريكية، كالمعهد الدولي اليهودي لشؤون الأمن القومي الذي يقدّم بعض كتابه ما أسموه بنظرية "كرة السلة والزجاج المكسور"؛ والتي تدعو إلى استخدام منهج القوة في التعامل مع

العراقيين، وعدم اللجوء إلى استرضائهم بالوسائل القانونية، وهي الرؤية القريبة من مقولة أن العرب لا يفهمون غير لغة القوة.
التصورات الأمريكية السابقة وانعكاساتها العملية على أرض الواقع تسبب وتساهم - كما يرى عدد من الخبراء الأمريكيين - في تقوية المقاومة العراقية وتعميق وجودها داخل المجتمع العراقي، كما تؤدي إلى استفزاز عدد كبير من الشباب ، والعائلات ، وكلما أوغلت القوات الأمريكية في استخدام الأساليب " القذرة " – كما يطلقها عليها - Zunes كلما زاد ذلك من مساحة المقاومة وأوجد التربة والمُناخ المناسب لنمو الخلايا المسلّحة .
ويضيف بول ماري دو لاغورس - في مقال له في صحيفة "لوموند ديبلوماتيك" بعنوان حرب ما بعد الحرب في العراق المحتل - إلى الأسباب السابقة أسبابا أخرى تتمثل في الظروف الاقتصادية المتدهورة وفشل إدارة الاحتلال في التعامل مع موارد البلاد وتنفيذ وعودها إذ يقول : "الأخطر من ذلك أن العراق عانى 12 عاما من الحصار والتراجع الاقتصادي والاجتماعي الكبير والنتائج الإنسانية المترتبة على ذلك، فجاء الدمار الحربي ليضاف إلى المعاناة مما يتطلب أشهرا من العمل للتخفيف منها دون التمكن من محوها بطبيعة الحال، لا وقود، لا كهرباء، لا عمل، هذا هو مثلث المصاعب الذي لا يرحم في غالبية أرجاء العراق بالرغم من بعض التحسن الطفيف هنا أو هناك، فلم تلتزم قوات الاحتلال إعادة إعمار سريعة للاقتصاد العراقي ولا إعادة بناء سياسية. لم يصر إلى استنفار الحركات الوطنية العريضة التي تعبّر عن توجه عميق في الرأي العام ساد بعد ثورة 1958 وحتى قيام ديكتاتورية أحادية، كما لم يصر إلى التعاون مع النقابات الأصيلة وكوادر الجيش الذين عانوا القمع الصدامي والذين يجسدون الشعور الوطني العراقي. كما لم يستنهض التوجه الاجتماعي العام المعاصر في اتجاه تعميم التعليم والعلمانية النسبية في التشريع أو حقوق المرأة.
ليس من المبالغة القول أن الشروط السياسية والاقتصادية والاجتماعية لنمو المقاومة كانت متوافرة منذ المرحلة الأولى للاحتلال فلم يبق سوى الشروط العسكرية التي كانت جاهزة هي أيضا، فبرزت المقاومة منذ بداية الصيف أي قبل توقع نشوبها. لكن الأجهزة الأمريكية تحاول إرجاعها إلى أنصار النظام السابق وإلى الحركات الإسلامية الإرهابية القادمة من الخارج والمرتبطة بتنظيم القاعدة"..

عام على غزو العراق 1/3 نحن والمقاومة ومستقبل الأمة

20-3-2004

فهل سيكون "سقوط بغداد" والانهيارات التي تلته مقدمة لصحوة أمة وقيامها بعد سبات طويل، أم أن هذا السقوط وتداعياته سيعمل على ترسيخ الواقع والقبول به وإحداث قطيعة شعورية وفكرية مع "الأحلام النهضوية" القادمة من التاريخ السحيق ؟! ..

بقلم محمد سليمان

إذا كانت أحداث أيلول يوما مشهودا في التاريخ الأمريكي ، فإن احتلال بغداد – في المقابل – يوما "مفصليا" في التاريخ العربي والإسلامي، لاتقف تداعياته عند حدود العراق وإنما تمتد إلى كل المجتمعات والدول العربية، وتتعدد مستويات تأثيره من الطفل الصغير – الذي لم يدرك بعد ما يجري – إلى الشيخ الكبير – الذي شهد مآسينا وبكى على جراحنا طويلا - ..
قراءة في " البعد النفسي " للسقوط
بلا شك فإنّ احتلال العراق وسقوط بغداد ليس حدثا سياسيا مجردا عن معانيه الاجتماعية والنفسية والثقافية ، وهو ليس كما يريد أن يصوره الخطاب الأمريكي والمتماليء معه : سقوط نظام فاسد والتخلص منه. وإنما حدث يصيب البنية النفسية والشعورية العربية برمتها، ويترك أثارا لا تزول أبدا في هذه البنية ويثير تساؤلات حقيقية حول رسالة الأمة وتاريخها وكثيرا من المسلمات التي درسها أبناؤها في المدارس والجامعات، فالتاريخ العربي والإسلامي ما زال حاضرا وبقوة في الواقع العربي الذي - وعلى الرغم من هشاشته وسوئه - يرفض القبول بما وصل إليه ويصر على أنه حالة "استثنائية" لأمة مرت بمحن وكوارث لكنها خرجت منها.
فهل سيكون "سقوط بغداد" والانهيارات التي تلته مقدمة لصحوة أمة وقيامها بعد سبات طويل ، أم أن هذا السقوط وتداعياته سيعمل على ترسيخ الواقع والقبول به وإحداث قطيعة شعورية وفكرية مع "الأحلام النهضوية" القادمة من التاريخ السحيق ؟! ..
هل يمكن أن نعيش أسرى للتاريخ وكل معطيات الواقع ومؤشراته تتناقض معه؟!، العالم يسير إلى الأمام ونحن ما زلنا نعيش في التاريخ ! كيف يمكن أن نتحلل من هذه الأسئلة ونصل إلى نقطة البداية ؟ ..
الملاحظات السابقة والتساؤلات ليست منبتة عن الجدل الذي دار على إثر سقوط بغداد في كثير من البلاد العربية، وقد تعددت اتجاهات الإجابة عليه، بيد أن الإجابة الاجتماعية لا تتمثل في كتاب يدون أو مقال يكتب أو حتى نقاش في ندوة! وإنما في سلوك عملي وقناعات تأخذ طريقها إلى الرسوخ في النبية النفسية الشعورية للإنسان العادي، أو في ظواهر اجتماعية وحركات احتجاج تأخذ أشكالا مختلفة .
لو كان سقوط بغداد مختلفا عما جرى فعلاً - أي كان سقوطا مشرّفا لا يتناقض مع قيم الفروسية والشجاعة التي تشكل ميراثا اجتماعيا ثقيلا (سواء كان حقيقيا أو مبالغا فيه) يصعب على العقل الجمعي العربي التحلل منه – لما تحدّثنا كثيرا عن البعد النفسي للسقوط، ولربما تحدّثنا عن قصص وروايات التضحية الكبيرة فيما قبل السقوط وما بعده ، كما نتحدث اليوم عن تضحيات الفلسطينيين، ولكن لأنّ السقوط [كان كما كان] فإنه هزنا جميعا من الداخل وأصابنا بالذهول ولربما مازلنا أسرى لهذه الصدمة ، والتي لا تقف عند حدود تساؤلات حول أسباب أو "لغز السقوط"، وإنما تتعداها للتساؤل حول مشروعية الإيمان العميق الذي كان

يسيطر على كثير منا بحتمية انتصار الأمة العربية : أليس للمستقبل شروط نفسية ومادية؟ هل ذلك الإيمان كان مخدرا مانعا لنا لإدراك الواقع وشروطه ومنهج التعامل معه ؟ في مصر على سبيل المثال تجدد النقاش واحتدم بين عدد من المثقفين والكتاب حول هوية البلد الحضارية هل هي "مصرية" أم "عربية" ..

البعد النفسي للسقوط كان خطيرا – وما زال - ، بيد أنّ المقاومة العراقية التي اشتعلت بعد الاحتلال بأيام ، واتسع نطاقها وقوي ساعدها مع الوقت ، أعادت شيئا من التوازن إلى النفس العربية والمسلمة بعد حالة الإضطراب التي أصابتها بعد سقوط بغداد والانهيارات التي تلته ، والشيء المؤكد في الأمر : أن الحرب النفسية الأمريكية مقصودة لذاتها في سقوط بغداد وفي التعامل مع العرب والمسلمين ، وبالتالي فالمقاومة هي الضوء الذي يلوح للجميع في هذا النفق المظلم في الواقع العربي الأليم ، وهي المرشحة أن تعيد كثيرا من الثقة إلى الإنسان العربي ، والذي خسر كثيرا منها بفعل الحروب والكوارث الأخيرة التي أصابته .

الاحتلال والمقاومة : الحروب العلنية والسرية

المقاومة العراقية وإن افتقدت إلى الآن كثيرا من المقومات الأساسية والمتطلبات الرئيسية لتتحول إلى حالة وطنية عامة في مواجهة المحتل وإخراجه، فإنها استطاعت أن تشكل عامل إزعاج حقيقي للمشروع الأمريكي ليس على المستوى الداخلي فحسب، بل وعلى سير المشروع الأمريكي على المستوى الإقليمي ، وعلى وضع الرئيس بوش نفسه في الانتخابات القادمة ، والأمر الأهم أنها تهدم كثيرا من جهود وادوات الحرب النفسية الأمريكية على العالم العربي والإسلامي .

إلاّ ان معضلة المقاومة العراقية – كما يلاحظ ذلك ستيفن زونز – أنها شكلت إلى الآن حالة غير محسومة : ففي الوقت الذي يبدو من الصعب على القوات الأمريكية أن تقضي على المقاومة على المدى القصير ، فإن هذه المقاومة غير قادرة على إخراج القوات الأمريكية وفق الحسابات الحالية .

كما أنّ تناقضات الواقع العراقي وحراكه المستمر مرشّح أن يقلب قواعد الصراع في أي لحظة، فإذا استطاع الأمريكان أن يسترضوا العشائر السنية دون خسارة الشيعة ، فإنهم بلا شك سيقضون على العمود الفقري للمقاومة العراقية ، بيد أن الأمريكان قد يخسرون الشيعة أو طائفة كبيرة منهم في أي لحظة، وهو الأمر الذي يشبهه الخبير الأمريكي كورديسمان بخسارة البوذيين في الحرب الفيتنامية، مما يشكل انقلابا في حسابات القوة والمواجهة بين المقاومة والاحتلال .

لذلك لا تقف حدود الصراع بين الاحتلال والمقاومة عند المواجهات والعمليات العسكرية ، وما يرتبط بها من حروب استخباراتية وأمنية وصفقات سرية ، وإنما تمتد إلى جهود علنية وسرية لتغيير مواقف القوى والفئات الاجتماعية العراقية تجاه طرفي الصراع : الأمريكان والمقاومة المسلحة ، الأمر الذي يتطلب دراسة عميقة للموقف وحسابات دقيقة للخطوات المطلوبة .

إنّ تناقضات الواقع السياسي والاجتماعي العراقي سلاح ذو حدين : فهي وإن فوتت إلى الآن على المقاومة العراقية فرصة وإمكانية بناء حالة من الاجماع الوطني على خيار المقاومة والاستقلال ، فإنها في ذات الوقت تضع الأمريكان في مأزق فعلي بين قوى سياسية تملك أوزانا كبيرة في العراق ، تقيس كل منها مصالحها على أساس يتعارض مع مصالح الآخرين ، وتهدد هذه الحالة – كما يصل إلى ذلك الباحث الأمريكي جيم لوب – إلى خطر الفوضى والفتنة ، وهو خطر حقيقي ، وليس متوهما في المرحلة القادمة ، وفي الوقت الذي تهدد الفوضى الأمن والسلم في العراق ، فإنها تهدد المصالح الأمريكية ليس فقط في العراق بل وفي المنطقة بأسرها .

إن الملاحظات السابقة تدفع إلى جملة كبيرة من الأسئلة حول المقاومة العراقية المسلحة للاحتلال – بعد عام على الغزو - : كيف نقرأ وضع المقاومة العراقية ؟ .. ماهي الفئات الفاعلة في بنيتها التنظيمية ؟ ما هي جوانب القوة والضعف في حالتها الراهنة ؟ .. ما هي سمات معادلة الصراع بينها وبين الاحتلال الأمريكي في هذه المرحلة ؟ وما هي اتجاهات تطور الحراك السياسي والعسكري في المرحلة القادمة؟..

للعودة للأعلى

اضف مشاركتك هنا

الإسم (ضروري)

البريد الإلكتروني(ضروري)

عنوان المشاركة (ضروري)

ا